الفيلسوف ليون تولستوي

في اليوم العشرين من شهر نوفمبر الماضي تمت ست عشرة سنة لوفاة الفيلسوف الروسي العظيم ليون تولستوي وقد شادت الجرائد الروسية بذكره وكتبت بمناسبة ذلك مقالات ضافية متفاخرة بتذكرة ذلك الكاتب العظيم الذي أحدث ثورة في الافكار وتجديداً في المعتقدات وانقلاباً عظيماً في النظرات الاشتراكية ومبادئها

أعجب الفيلسوف بفلسفة سبنسر وماركس وغيرهما من الفلاسفة الاشتراكيين الذين أذاعوا مبادئهم على الملأ ولكنه بعد درس عظيم وامعان الروية رأى أنهم قالوا ولم يفعلوا فعزم أن يحقق بنفسه مايقوله ويذيعه بين الناس من الافكار الجديدة والمبادىء العامة . رأى الفيلسوف أن الانسان لايكون انسانا بجميع معاني الكلمة الا اذا تجرد عن زخارف هذه الدنيا الفانية وملاهيها الخلابة الفتانة ورأى أن الاعمال الصالحة وانكار النفس وتكريسها لخدمة الله الواحد تُدني الانسان من السعادتين الدنيوية والاخروية وكان في جميع تعاليمه ينادي مجاهراً وحثاً على أن يسير الناس بحسب منطوق الآيتين القائلتين « حب الملك من كل قلبك . وحب قريبك كنفسك » وكان الفيلسوف مثالا صحيحاً حقاً لانكار النفس وتخصيص كل قواه لخدمة الانسانية والسعي لابلاغها قمة الكمال — ذلك الكمال الذي لم يستطع الناس ولن يستطيعوا فهمه على حقيقته لأنهم من أهل هذا العالم الغرار ولأن نفوسهم أشربت بالأنانية والطمع والأثرة والعظمة — ولا يفهم تعاليم تولستوي السامية الا اولئك الذين تجردت نفوسهم من حب العالم وسمت الى السماويات — الى الحياة الأبدية الخالدة المجردة عن شوائب وأكدار هذه الحياة الزائلة .

كان الفيلسوف تولستوي في شبابه ضابطاً في الجندية وأرسله عمه من القادة العظام لايصال رسالة الى قائد حامية قلعة سيفاستوبل التي كانت تحاصرها جنود الدول المتحدة ضد روسيا ولم يستطيعوا الاستيلاء عليها الا بعد أن غدت جثث قتلاهم دلى مساوئ أسوارها . رأى أهوال الحرب وما تجره من الشرور والويلات على الانسانية فأثر ذلك في نفسه تأثيراً شديداً ولما انتهت الحرب ترك موسكو وجعل

تولستوي وزوجته الكونتس صوفيا

يقيم أكثر أيامه في قرية إسنايا بوليانا حيث مزارعه وأراضيه الشاسعة

ومن هذا التاريخ زهد في هذه الدنيا وأخذ يرتدي ملابس الفلاحين الروس وجعل يحرث الأرض بنفسه ويستغلها كما أخذ يطوف على الفلاحين ويساعدهم في

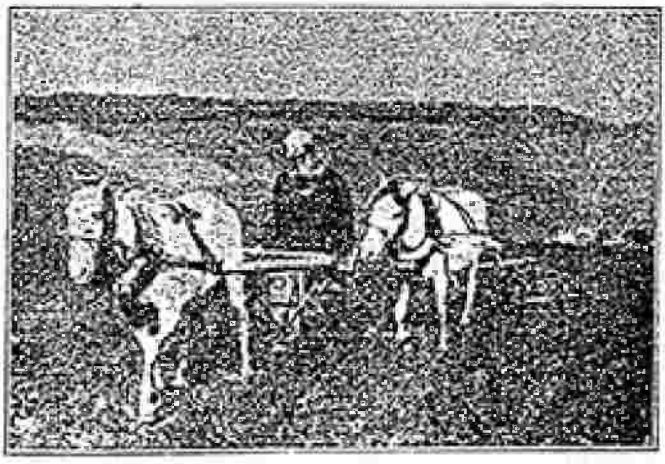

الفيلسوف تولستوي يحرث الارض في أرضه

حراثة الأرض وعزقها وحصاد مزروعاتها

ولم يقف عند هذا الحد بل أنه جعل يخيط حذاءه وملابسه بيده متخذاً النعل من جلود الحيوانات والسكتان (التيل) من محصولات أرضه وفي أوقات الفراغ كان يجمع أولاد القرية ويلقي عليهم دروساً تناسب أفهامهم وقد أنشأ لهم على حسابه مدرسة كان يلقي فيها الدروس بنفسه مع بعض المعلمين

تولستوي يعلم الاولاد والفلاحين

وفوق هذا وذاك فانه أنشأ جريدة باسم القرية كان يكتب فيها الحكايات الاخلاقية للاولاد مع بعض الدروس الادبية السهلة

وأهم عمل قام به تولستوي في حياته أنه وزع جميع أراضيه على الفلاحين وترك لنفسه قطعة أرض يعيش من ريعها أسوة بهم ولما أراد تنفيذ فكرته هذه جمع الفلاحين وجلس معهم وأخذ يشرح لهم طريقة توزيع الارض عليهم وطريقة استغلالها ولكن اولئك الفلاحين السذج الذين اعتادوا الاستعباد والذل والخضوع الاعمى لاشراف الروس لم يفهموا كلام الفيلسوف وظهرت على وجوههم سمات البله والذهول فقال لهم الفيلسوف : انني أعطي لكل واحد منكم قطعة أرض يدفع ثمنها أقساطا زهيدة متباعدة الى المصرف المالي الزراعي الذي أنشأه في وسط الأطيان والاموال التي تتجمع في هذا البنك تكون لكم أي للفلاحين تدفع منها اعانات عند الاضطرار لكل فلاح منكم تموت ابقاره بسبب المرض أو يحدث حريق في مزروعاته أو جرنه (بيدره) أو تفسد النار

والآفات الزراعية مزروعاته فلما فهموا أخيراً ماقول هجموا عليه يقبلون يديه ولكنه حال بينهم وبين ذلك وقال لهم مخاطباً : يجب علينا جميعاً أن نعيش كأسرة واحدة وأن نساعد بعضنا بعضاً وأن نبتعد عن كل خصام ونزاع يجران الى القضاء أو غيره وسأكون أنا لكم مثالاً وقدوة واني من الآن فصاعداً سأحرث الارض وأزرعها وأحصد الحاصلات وأساعد كل واحد منكم يحتاج الى المساعدة

تولستوي يحمد الهرسيم والحشيش لتشريه قيامه

وأثرت تعاليم تولستوي هذه في نفوس كثيرين من شبان الروس ورجالهم وأواتهم وعقائلهم فهجروا بلادهم وأنشأوا بلاداً صغيرة أطلقوا عليها اسم مستعمرات تولستوي وعاشوا يعيشون على البقول والحبوب وتركوا أكل اللحوم والاغذية الدهنية وجعلوا يشتغلون كالفيلسوف ويشجعون على منواله في معيشته وحالته وكانوا يجتمعون في أيام الآحاد ينشدون الاناشيد الروحية ويوجه الاجمال كانوا يعيشون بغبطة لم يشعروا بها في حياتهم وكان كثيرون منهم من الأسر النبيلة ذات الثروة الطائلة وقد طار ذكر تلك المستعمرات في الآفاق وقصدها العلماء والكتاب وكتبوا عنها اذ ذاك الفصول الضافية .

الكونتس صوفيا هنه خليع زوجها الفيلسوف

هذا هو الفيلسوف تولستوي الذي تكتفي بالكتابة عنه بما ذكرنا خيفة الاطالة وكنا نود أن نذكر شيئاً من فلسفته ومبادئه ورياضته ونعود الى ذلك في فرصة أخرى والسلام

وصف بخيل

غدونا الى ميمون نطلب حاجة ... فأوسعنا منعاً وجيزاً بلا مطل
وقال: «أعذروني إن بخلي جبلّة ... ولين يدي مخلوقة خلقة الفعل»
فألقى الينا عذرة لا نردّها ... وكان ملقّى حجة اللوم والبخل

ابن الرومي